الخاتمة:

فى البدء كان الفعل .. فى البدء كان العمل

إذا كان "كوبرنيقوس" قد أجبر الإنسان على رؤيـة واقـع ذلـك الكوكـب الصغير (الأرض) بوصفه جزءًا من الكون الكبير وليس مركـزًا لـه، وإذا كـان "داروين" قد أوضح للإنسان أنه ليس أكثر حظًا من بقية الحيوانات وأنه لا يمتلـك أية أصول رائعة، بل يشاركهم نفس أصولهم، وإذا كان "أينشتين" قد نسف مفـاهيم الزمان والمكان الكلاسيكية، وأعاد صياغتها من جديد ووضع الإنسان أمام كـون يثير الحيرة والاختلاف عن ذى قبل، وإذا كان "فرويد" قد وضع الإنسان أمام نفسه وبين له أن "الذات" الإنسانية "الأنا" ليست هى سيدة بيتها، فإن "وليم جيمس" ومـن بعده "جون ديوى" قد أجبروا الإنسان على إعادة النظر فـى طبيعـة "الحـق"، أو "الصدق" ومن ثم طبيعة "الحقيقة" وهو أمر أجبر الإنسان على إعادة النظر فى جل معارفه التى حازها خلال تاريخه المكتوب ليعيدوا بذلك كتابة التاريخ مـن جديـد وفقاً لرؤية عملية كان ينظر إليها فيما سبق بوصفها رؤية ناقصة نظرًا لامتزاجها بعناصر الحس، والرغبة، والعمل، فأصبحت تلك الرؤية ذاتها هى الرؤيـة التـى تعرض نفسها بقوة على مسرح الأحداث، ليتأكد بذلك دور الفعل والعمل بوصفهما ما نحى الخبرة ومن ثم المعرفة.

وعبر هذا البحث المتواضع حاولت الباحثة طرح فرض مؤداه أن المـذهب البراجماتى يمتلك نظرية فى المعرفة لا تقل فى مجملها وصميمها عن أية نظريـة أخرى بأى حال من الأحوال، وقد عرضت الباحثة لعناصر هذه النظرية بغـرض تأكيد هذا الفرض من ناحية، ودراسة عناصر نظرية المعرفة البراجماتية من ناحية أخرى وذلك من خلال عرض وجهتى النظر الرئيسيتين لهذه الرؤية عند كل مـن "وليم جيمس" ثم "جون ديوى" وهما اللذان يكملان بعضهما البعض ليصوغا رؤيـة واحدة تتجلى أبعادها فى الفلسفة الذرائعية عند "جون ديوى".

ومن خلال هذا البحث استطاعت الباحثة التوصل إلى نتائج أولية أساسية، يأتى فى مقدمتها:

- أن الفلسفة البراجماتية جاءت تعبيرًا واضحًا عن المجتمع الأمريكى عبر تجلياته التاريخية والاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية .. الخ، حيث تمكنت من صياغة رؤية فلسفية أمريكية الطابع فى مجملها وعبر تفصيلاتها المختلفة، من حيث كونها صياغة فلسفية تستند على مبدأ الخبرة الذى يعتمد فى صميمه على مبدأ العمل واحترام العمل، ذلك أن الإضافات التى يضيفها الإنسان للعالم هى تلك التى تستند على الفعل الإنسانى، على العمل، فالعالم غير مكتمل الصنع، ولا يمتلك بنية قارة ثابتة، بل هو دائمًا فى طور التشكل والتكوين، ومن ثم ينبغى على الإنسان العمل على إتمامه بشكل دائم.

ترتبط نظرية المعرفة البراجماتية ارتباطًا وثيقًا بمقولة الزمن، وتعتمد عليها، فالمستقبل هو اتجاهنا نحو الفعل وليس الماضى، ذلك لأن الحاضر الذى يمثل الآنات المتوالية يتجه فى مسيرته نحو المستقبل، ومن ثم فإن طبيعة الصدق فى معرفتنا بدورها ينبغى أن تسير فى نفس الاتجاه نحو المستقبل، فنتائج الفكرة هى التى تحدد مدى صدقها، ومدى قدرة الفكرة على التلاؤم مع واقع العمل، والخبرة، ويحدد بدوره مدى قدرتها على الصمود فى مواجهة الواقع والاستمرار أمام صراعات الأفكار الأخرى البديلة.

ويؤدى هذا بدوره إلى التأكيد على رفض قداسة مفهوم "الحق"، فالتغير والنسبية هما اللذان يحددان رؤيتنا للحق، وما هو صادق اليوم قد يصبح غدًا كاذبًا، لأن الصدق أو الحق غير قار فى طبيعة الفكرة بل هو صفة تطرأ عليها، وقد يتبدل وفقًا للظروف الموضوعية التى تحكم رؤية الإنسان لها، ومن ثم تنتفى عن الأفكار صفة القداسة مثلما انتفت عن مفهوم "الحق"، وتصبح علاقة الخبرة بالواقع هى الحاكم الرئيسى، هى العلاقة السائدة بين الفكرة وحقيقتها النسبية، وفقًا لمتغيرات عديدة، منها موقع المراقب أو المشاهد، مدى قدرة الفكرة على التحقق

فى الواقع، ما تحتمله الفكرة من نتائج نافعة، ومفيدة ليس على المستوى الذاتى بل على المستوى الموضوعى.

إن البراجماتية تعيد صياغة علاقة الذات بالموضوع وفقًا لرؤية تستند فى صميمها على العلم والمعارف العلمية، ووفقًا لعلاقة جدلية يمكن من خلالها لكلا الطرفين أن يضيف للآخر إضافات إبداعية جديدة، فهى علاقة ذات نفع مشترك، تؤدى بدورها إلى تطور كلا الطرفين الذات، والموضوع، وهى تقوم بذلك عبر إعادة صياغة لكلا الطرفين (الذات والموضوع).

فالذات العارفة لم تعد تمتلك تلك القدرة العقلية الخالصة التى تستطيع من خلالها الحكم على الأشياء، تلك النظرة التى كانت تسود إبان العصور القديمة والفلسفات والمذاهب الكلاسيكية، بل تمتلك وجهة نظر قد تصلح لإضافة شئ للعالم (الموضوع) وقد لا تصلح، بل إنها قد تصلح فى عصر ما ومجتمع ما ثم تتبدل الظروف فلا تعود صالحة لزمان آخر ومجتمع مختلف.

أما الموضوع فهو غير مكتمل، قابل للتغير والصيرورة، ومن ثم قابل للتطور، وهو عبر تغيراته وتطوراته المادية يتجلى للذات العارفة بوصفه عالمًا متنوعًا وتعدديًا، قابل للتشكل.

وتستند العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع على رفض حاسم للمرجعية الميتافيزيقية العقلية، ذلك لأن مفهوم العقل بوصفه أداة المعرفة الرئيسية قد طرأت عليه تغيرات عديدة، فلم يعد بدوره هو ذلك الكائن القادر على اكتشاف العالم مستندًا على عقل كلى وحقيقة كلية، فلقد انتفت هذه الرؤية، إذ طرحت البراجماتية رؤية جديدة تستند على أن إراداتنا وذكاءاتنا ليسوا مطلقين على أى نحو من الأنحاء، وأن الإرادة هى التى تحكم سير المعرفة وتوجهاتها.

إن البراجماتية تمتلك رؤية فلسفية معرفية تحتوى على كافة عناصر ومقومات "نظرية المعرفة"، ومن ثم فإنهم يمتلكون نظرية معرفية ذات صياغة فلسفية تجيب على معظم الأسئلة التى يطرحها مبحث المعرفة، فمن حيث إمكان

المعرفة فإن البراجماتيين يؤكدون على القدرة الإنسانية، فى بلوغا معارف عديدة صادقة ونافعة يمكن الاستفادة بها فى تطور الحياة الإنسانية، وإن كانوا لا يؤمنون بيقين مطلق، حيث تعد المعرفة لديهم أمرًا بالغ النسبية والتغير.

كما أجاب البراجماتيون عن السؤال حول أداة المعرفة وطبيعتها من خلال عرضهم لطبيعة العقل ولدور الحس فى العملية المعرفية سواء عند "جيمس" أو "ديوى" ولم ينس البراجماتية خلال ذلك عرض طبيعة الذات الإنسانية وعلاقتها بالعالم، وطبيعة العالم، من خلال رؤية فلسفية تستند فى صميمها على ما تم التوصل إليه من معارف علمية فى كافة المجالات والدراسات، إذ منحت البراجماتية للفلسفة أدوارًا جديدة، وأعطت للفيلسوف مبررات عديدة لاستمراره ووجوده.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن الباحثة قد تمكنت من خلال الدراسة إلى الوصول إلى تأكيدات فلسفية لفرضيتها الرئيسية حول امتلاك البراجماتية لنظرية فى المعرفة ذات عناصر ومقومات متكاملة، يمكن من خلالها فهم طبيعة المذهب البراجماتى الأمريكى عند كل من "جيمس"، و"ديوى"، كنموذجين كبيرين للفلسفة البراجماتية، وقد توصلت الباحثة لهذه التأكيدات من خلال الإجابة على الأسئلة النظرية التى تطرحها الأبستمولوجيا ودراسة ما يقرره المذهب البراجماتى من إجابات ورؤى فلسفية معرفية واضحة المعالم، ومن ثم طرحت للرؤية البراجماتية فى صياغتها لـ "نظرية المعرفة" وتطورها الذرائعى. ويمكن أن نقول إن تيار الشك فى الماهيات العقلية الذى بدأ مع التجريبية وصولاً إلى "كانط" قد وصل بالفكر الفلسفى إلى قناعات أو لنقل إلى حدود لا يتجاوزها العقل، حيث وجد منذ "هيوم" مجالات من الحياة الروحية يقبلها العقل على أنها معتقدات، ثم أكد "هيجل" ارتباط كل ما هو مطلق فى الخبرة الإنسانية بتجلياته الواقعية، التى هى حقيقته وكأن الحياة المتغيرة المتطورة للفكرة هى المعرفة المحددة التى نستخلصها بخصوص كل ما هو مطلق .

لقد تنازلت الماهيات العقلية عن كل ما ألصق بها من قداسة ومفارقه وارتبط الصدق بشكل نهائى بما هو "واقع"، وفى هذا الإطار تتماشى نظرية المعرفة البراجماتية مع التراث الغربى، وكأنها المحصلة أو الثمرة الطبيعية لمسار الفكر بخصوص اليقين.